◆ حَيُّ بن يقظان بين الشرق والغرب

لم تأخذ قصةُ حَيِّ بن يقظان نصيبها التام من التحليل والتوضيح ، فهى أثر فذّ خالد يشير إلى عبقرية نادرة ونبوغ ناضج ، ولها صلات متشعبة بأكثر من ناحية من نواحى البحث العلمى ، فرجال التربية يروْن فيها مثالاً لما تحدثه التربية الفطرية السليمة من آثار ، ويستدلون بها على أثر الطبيعة فى تنمية الحواس وشحذ الإدراك ، والذين يتحدثون عن نشأة الحياة على الأرض يرجعون إليها فى ملء الفجوات التى تتسع أمامهم حين يفترضون أشياء معقولة يظنونها قد استقامتْ على نحو من الأنحاء ، ثم يضطربون فى إيصال الحلقات لتسيير السلسلة الكونية منتظمة كما يعقل أن تسير ، وعلماء الفلسفة يروْنها الدليل على قدرة العقل وقوته ، واستطاعة الإنسان المتأمل أن يرتقى عن عالمه المحسوس الضيق إلى العالم الأوسع الفسيح ، فيصل إلى الخالق بتفكيره ، ويرى آثار الله دالةً على وجوده ، كاشفةً عن حقيقته ، أما رجال الأدب فلهم أن يقولوا كلمتهم فى هذا الإبداع المطرد فى تدفق وحيوية ، وهذا النّظر المصوّب إلى الأعماق الدفينة تارة ، والصاعد إلى الآفاق الرحيبة تارة أخرى ، نافذًا ناقدًا ومحللاً معللاً ، كل ذلك مما تتسع له هذه القصة العجيبة ، إذا تجرّد للحديث عنها أفذاذ جهابذة ، وهى الآن مظلومة مهضومة مع أثرها البعيد واتجاهها الفريد !

كنت أقرأ كتاب «لحظات الإلهام فى تاريخ العلوم » للكاتب الكبير «مريون فلورنس لاتسنغ» ، فوجدته يتحدث فى الفصول الأولى عن الإنسان الأول ، وكيف اهتدى إلى ما

يصلح حياته بالتجربة والملاحظة .. فأحسست أنى أقرأ لابن طُفيل لا لمريون فلورنس ، معَ قرب عهده بالنسبة للمفكر الأندلسى البديع ، أحسستُ ذلك فى أكثر من صحيفة ، وفى أكثر من فصل ، بل إن عبارات ابن طفيل كانت تتراقصُ أمام عينى ، وكأنها المصدر الأول لمريون ، فهو مثلاً يتحدث عن الاهتداء إلى النار ، فيرى أن البرق كان يُصيب الغابات الجافة فيضرم بها اللهيب ، وربما كان فيمن رأوا هذا المشهد رجلٌ جرى فأخذ يحتفظ بجزء من النار ويتعهّدها بالوقود كى لا تنطفىء ، وكانت كل قبيلة تقيم حراسًا من أشدائها يتناوبون الحراسة فيمدونها بالحطب والألياف كيلا تخمد ، ثم مضت مئات من السنين حتى اهتدى الإنسان إلى معرفة الحصول عليها دون أن يسهر على حياتها ، إما بِسَنِّه قطعة خشب محددّة على لوحةٍ صلبة من البلاط ، وإما بِدقّ حجرين من الصوان ، هذا بعضُ ما قاله «مريون فلورنس» ، وهو مقتَبس لا محالة من هذه الفروضِ المحتملة التى افترضها المفكرون فى حياة الإنسان الأول ، فأخذوا يتخيلون ثم يكتبون ، لأن حياةَ الإنسان الأول لم تصلْ إلينا بوجهٍ من الوجوه فى أثر من الآثار ، ويوم أن استطاع هذا الآدمى العجيب أن يكتب ويترك من الآثار والعاديات ما يدل عليه لم يكن هو الإنسان الأول عن يقين ، بل كان الإنسان المتطور السائر فى رَكْب الوجود على هدى من التجربة والملاحظة ، ومعاناة من التعثر والتخبط ، فإذا لجأ مؤرخو الإنسان الأول إلى الافتراض فإن فى طليعتهم صاحب حى بن يقظان ، وهو فى ذلك - بالنسبة إلى مراجعه العربية - مبتدىء مجدد لم يرجع إلى سابق متداول كان بين قرنائه ومعاصريه .

لقد وقفتُ على خلاصةِ حديثِ مريون فلورنس عن اكتشاف النار ، ولكَ أن تسمع ما قاله ابنُ طفيلَ العالم المفكر المتخيل حين تحدث عن حى الوحيد المتفرد فى الجزيرة فقال :

«واتفقَ فى بعض الأحيْان أن انقدحَتْ نارٌ فى أجمة «قلح» ، على سبيل المحاكة ، فلما بصر بها حىّ رأى منظرًا لم يعتده من قبل ، فوقف يتعجّب منها مليًّا ، وما يزال يدنو منها شيئًا فشيئًا ، فرأى ما للنار من الضوء الثاقب والفعل الغالب ، حتى لا تعلق بشىء إلا أتت عليه وأحالته إلى نفسها ، فحمله العجب بها ، وبما رَكّبَ الله فى طباعه من الجرأة

والقوة ، على أن يمد يده فلم يستطع القبض عليها ، فاهتدى إلى أن يأخذَ قبسًا لم تستولِ النار على جميعه ، فأخذَ بطرفه السليم ، والنار فى طرفه الآخر ، فتأتَّى له بذلك حَمْله إلى موضعه الذى كان يأوى إليه ، وكان قد خلا فى حَجَر استحسنه للسكنى قبل ذلك .. ثم مازال يمد تلك النار بالحشيش والحطب الجزل ، ويتعهدها ليلاً ونهارًا استحسانًا لها ، وتعجبًا منها ، وكان يزيد أُنسه بها ليلاً ، لأنها كانت تقوم له مقام الشمس فى الضياء والدفء ، فعظم بها ولوعه ، واعتقد أنها أفضل الأشياء التى لديه ، وكان يراها دائمًا تتحرك إلى جهةِ فوق ، وتطلب العلو ، فغلب على ظنه أنها من جملة الجواهر السماوية التى يشاهدها ، وكان يختبر قوتها فى جميع الأشياء ، بأن يلقيها فيها ، فيراها مستولية عليها ، إما بسرعة أو ببطء ، بحسب قوةِ استعداد الجسم الذى كان يلقيه للاحتراق أو ضعفه ، وكان من جملةِ ما ألقى فيها – على سبيل الاختبار لقوتها – شىء من أصناف الحيوانات البحرية كان قد ألقاه البحر إلى ساحله ، فلما أنضجت ذلك الحيوان وسطع قتارُهُ تحركتْ شهوته إليه ، فأكل منه شيئًا فاستطابه ، فاعتاد بذلك أكل اللحم ، فصرف الحيلة فى صيد البر والبحر حتى مهر فى ذلك » .

هذا التخيلُ المعقول لحياة الإنسان فى بدء الخليقة قد ساعَد ابن طفيل على إيجاده ، بل إنه رسم الطريق لكل تخيل يجرى مجراه ويسير نحوه ، حتى اكتملت قصة الحياة كما تصورها الفنانون من مُبدعى التاريخ البشرى ، وأصبح الحديث فى ذلك قريبًا من قول ابن طفيل ، أو على نحو يتجه إليه سريعًا وإنْ حَادَ عنه قليلاً .. ولصاحب حىّ بصر متأمل حين يسير بالأشياء فى طريقها المعقول ، فيتصوّر ما كان كأنه يراه حين يكون ، والقارىء لا يملك إلا تصديقه ، بل إنه يحس فى أطواء نفسه حين يستمع إليه أنه يصغى إلى قصة يعرفها ويتخيلها ، ولكنه – لظروفٍ مَّا – لم ينطق بها ، إذ هيأت الأقدار لها كاتبًا بصيرًا يتولى صياغتها الدقيقة ، فيحيط بأقطارها الفساح ، وفى الناس من تهجس أعماقه بمثل ما هجست به أعماق ابن طفيل حين تخيل الحياة الأولى للإنسان الأول فقال :

«وفى خلال هذه المدة المذكورة تفنّن فى وجوه حِيَلِه ، واكتسى بجلود الحيوانات التى كان يُشَرِّحُهَا ، واغتذى بها ، واتخذ الخيوط من الأشعار ولحاء القصب والخبازى والقنب

، وكل نبات ذى خيط ، واستأنسَ جوارحَ الطير ليستعين بها فى الصيد ، واتخذ الدواجن ليستعين ببيضها وفراخها ، واتخذ من صياصى البقر الوحشية شِبه الأَسِنَّة ، وركَّبَها فى القصب القوى ، وفى عصىّ الزان وغيرها ، واستعان فى ذلك بالزّان وحروف الحجارة حتى صارت شبه الرماح ، واتخذ ترسه من جلودٍ مضاعفة ، كلّ ذلك لما رأى من فقد السلاح الطبيعى ، ولِمَا رأى أن يده تفى له بكل ما فاته من ذلك ، وكان لا يقاومه شىء من الحيوانات على اختلاف أنواعها ، إلا أنها كانت تفر عنه فتعجزه هربًا ، ففكر فى وجه الحيلة فى ذلك ، فلم يجد شيئًا أنجح له من أن يتألف ببعض الحيوانات الشديدة العَدْو ، ويحسن إليها بإعداد الغذاء الذى يصلح لها ، حتى يتأتى له الركوب عليها ، ومطاردة سائر الأصناف بها ، وكان بتلك الجزيرة خَيْلٌ برية ، وحُمُر وحشية ، فاتخذ منها ما يصلح له ، وراضَها ، حتى كمل له بها غرضه ، وعمل عليها من الشَّرَك والجلود أمثال الشكائم والسروج ، فتأتى له بذلك ما أمَّله من طرد الحيوانات التى صعبت عليه الحيلة فى أخذها ، وإنما تفنن فى هذه الأمور كلها فى وقت اشتغاله بالتشريح ، وشهوته فى وقوفه على خصائص الحيوان ، وبماذا تختلف » .

هذا نحو من أنحاء ابن طفيل فى القصة ، ملأ به ثغرات كثيرة كانت فجواتها البارزة تعترض مؤرخى الحياة البشرية ، وأثره فيمن تلاه من رجال هذه المباحث أوضح من أن يشار إليه ، وما بسبيلنا أن نفصل ذلك ، ولكننا نرصد مجالات التفوق فى قصة حىّ بن يقظان ، وتصوير التاريخ الأول للبشرية أحد هذه المجالات .

أما المجال الثانى فدورها الهام فى التربية ، إذ كانت الطريقة السائدة إذ ذاك فى حقل التربية والتعليم شرقًا وغربًا ترجع إلى التلقين والاستظهار ، فالطالب يملأ ذهنه بالمعارف ، ووظيفة الأستاذ أن يقف على مدى التحصيل لديه ، وإذا شاء أن يجعل تلميذه فى رأيه مثقفًا مستنيرًا أرهقه بحفظ القواعد العلمية ، والنظريات العقلية ، ثم أخذ ينصت إليه وهو يتلوها عن ظهر قلب ، ولكن ابن طفيل قد حارب هذه الطريقة حين جعل حىّ بن يقظان يتخذ من الطبيعة أستاذًا يلهمه أدق الأسرار ، وحين أرهف حواسه وملكاته وشحذها شحذًا قويًّا لتتفهم ما يحيط بها من ألغاز الكائنات ، فجعل يوقظ فيه روح الملاحظة الدقيقة

والإدراك الفطرى ، ويكثر تجاربه الشخصية ليخطىء أولاً ، ويصيب ثانيًا ، فيتجنب أسباب الخطأ عن يقين واستبصار .. ثم يفسح له مجال التأمل البصير ليوازن بينه وبين نفسه ، فلا يخطط طريقًا لا يوصله إلى نفع قريب ، وابن طفيل يعرف لا محالة ما يعرفه علماء التربية ، من أن الطفل يُولد مزودًا بقوى فطرية وغرائز لابد من توجيهها اتجاهًا صالحًا ، ولابد من استغلالها فى تنمية العقل وتكوين الخلق .. وهو متعطش دائمًا إلى معرفة الحياة الجديدة التى تحيط به ، وإدراك ما استتر وراء ظواهرها البارزة من خوافٍ مدهشة ، ولابد من إرواء عطشه ونَقْع غليله كى يطمئن به مقامه فى الحياة ، فيسير على أرض صلبة لا تزعزعها عواصف الشكوك ، وسبيله إلى ذلك قوة الملاحظة ، ودوام التأمل ، وتعهد التجربة نرى ذلك كله فى تصرف حىّ بن يقظان حين يبصر الأشياء لأول مرة ، ويقارن ما يراه من المخلوقات بنفسه ، فيرى وجوه اتفاق واختلاف ، فيتساءل عَمَّا يرى .. ويصور ابن طفيل شجونه وخواطره حين يقول عنه[1] :

«وكان فى ذلك كله ينظر إلى جميع الحيوانات فيراها كاسية بالأوبار والأشعار وأنواع الريش ، وكان يرى ما لها من سرعة العَدْو وقوة البطش ، وما لها من الأسلحة المعدة لمدافعة من ينازعها ، مثل القرون ، والأنياب ، والحوافر ، ثم يرجع إلى نفسه فيرى ما به من العرى ، وعدم السلاح ، وضعف العَدْو ، وقلة البطش عندما كانت تتنازعه الوحوش أكل الثمرات وتستبد بها دونه وتغلبه عليها فلا يستطيع المدافعة عن نفسه ، ولا الفرار عن شىء منها . وكان يرى أترابه من أولاد الظباء قد نبتت لها قرون بعد أن لم تكن ، وصارت قوية بعد ضعفها فى العَدْو ، ولم ير لنفسه شيئًا من ذلك كله ، فكان يفكر فى ذلك ولا يدرى ما سببه ، وكان ينظرُ إلى ذوى العاهات والخَلْق الناقص ، فلا يجد لنفسه شبيهًا فيهم ، وكان أيضًا ينظر إلى مخارج الفضول من سائر الحيوانات فيراها مستورة دونه ، فلما طال هَمُّهُ فى ذلك كله وهو قد قارب سبعة أعوام ويئس من أن يكمل له ذلك ، وما قد أضر به من نقصه ، اتخذ من أوراق الشجر العريضة شيئًا جعل بعضه

(١) انظر : حى بن يقظان الذى حققه الدكتور أحمد أمين ونشرته دار المعارف فى سلسلة ذخائر العرب ص ٧٣ – ط أولى .

خلفه ، وبعضه قدامه ، وعمل من الخوص والحلفاء شبه حزام على وسطه وعلّق به تلك الأوراق ، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى ذوى الورق وجَفَّ وتساقط عنه ، فمازال يتخذ غيره ، ويخصف بعضه ببعض طاقات متضاعفة ، وربما كان ذلك أطول لبقائه ، إلا أنه كان على كل حال قصير المدة ، واتخذ من أغصان الشجر عصيًا سَوَّى أطرافها ، وعدل متنها ، وكان يهش بها على الوحوش المنازعة له ، فيحمل على الضعيف منها ، ويقاوم القوى منها ، فنبل بذلك قدره عند نفسه بعضَ نباله ، ورأى أن ليده فضلاً كثيرًا على أيديها ، إذ أمكن له بها ستر عورته ، واتخاذ العصى التى يدافع بها عن حوزته ممّا استغنى به عَمَّا أراده من الذنب والسلاح الطبيعى » .

كلام نفيس جيد نخشى أن نطيل اقتباسه فننقل أكثر ما قال ابن طفيل ، وهو يَطَّرِدُ فى هذا المنحى اطرادًا موفقًا ، إذ يجعل الملاحظة والتجربة ديدنه ، فيصيب بهما قدرًا كبيرًا من النجاح ، كما أنه – قبل كل شىء – يميل بالتربية إلى الطبيعة ، فهو أستاذ «روسّو» فى ذلك ، وليس معنى هذا أن الكاتب الفرنسى قد أخذ عنه رأيه التربوى ، ولكنه قد سبقه بعدة قرون فى تلقى أسرار التربية عن فم الطبيعة نفسها ، وقد نشأ «جان جاك روسو » مفتونًا بمباهج الكون ومجاليه ، ثم بحث فى أعماقه مدققًا فى استكناه الطبائع والغرائز والميول ، فرأى أن الطريقة المثلى للتربية هى مسايرة هذه الطبائع السليمة ، إذ تتجه دائمًا إلى استكناه الكون ، ومعرفة البواعث ، وتعدِّى الظواهر إلى الخفايا ، وإنْ غَلاَ فى ذلك مغالاة دفعته إلى المناداة بالتربية السلبية ، على أساس أن يترك الأشياء للطفل يعالجها وتعالجه دون إرشاد معلم ، وهو تصور بعيد عن الحقيقة ، لأن الطفل – مهما كان قوىّ الملاحظة – فى حاجةٍ إلى من ينظم له طريق البحث ، ويمهد إليه أسباب النظر ، ويهيج فيه شعور الاستنتاج ، ولن نتخذ حى بن يقظان دليلاً على صحة اتجاه روسو ، لأن بطل الفيلسوف الأندلسى قد عَانَى من المصاعب الشدائد ما كان يهون لديه لوْ وَجَدَ المعلم الناصح والمربى البصير ، وإذا كان قد عرف الطريق بعد مجهود شاق تصرمتْ به السنون والأعوام ، فما أجدرنا أن نجنب أطفالنا هذا التعثر ، وظروفهم غير ظروف حىّ دون نزاع ! ثم إن ابن يقظان من وراء ذلك كله حاد البصيرة ، خارق الذكاء ، ولن يكون جميع

الأطفال من هذا الطراز ، على أن القول بالجزاء الطبيعى - الذى نادى به «رُوسُّو» ، واعتنقه «هربرت سبنسر» ، ودافع عنه مدافعة صارمة ، أيّدها بتفكيره الدقيق ، وميزانه المنطقى - قد وُجِد بصورة واضحة عند ابن طفيل ، فحىٌّ كان يخطىء ، فكان يَلْقَى جزاء الخطأ من جنسه ، يمدّ مثلاً يده إلى النار حين يراها أول مرة ليختبر جوهرها فيدركه الجزاء الصارم باللذع والإحراق ! وفى ذلك ما يؤكد أن القصة فى حاجةٍ إلى دراسة تربوية تبين منهج مفكر كبير من مفكرى الإسلام فى التربية والتعليم ، وتوضّح مدى استفادة معاصريه وتأثر من تلاهم بآرائه ، ثم نُقارن ما تمخضتْ عنه الأبحاث الجديدة فى التربية ببعض ما اهتدى إليه ، وهو مبحث بكر يتطلب من يهتم به من الباحثين .

وقبل أن نتحدث عن مغزى القصة الفلسفى - كما عناه ابن طفيل - وعن أثرها القوى فيما تلاها من المؤلفات ، وهو ما أردناه بكتابة هذا البحث ، نوجز المقال عن أسلوبها الأدبى ، فنرى أنها - من حيث كونها قصة - يصدق عليها قول الأستاذ «غرسيه غومس»[1] :

«إن الخيط الذى ينتظم حلقات القصة يبدو واضحًا غليظًا فى أولها وآخرها ، ويدق فى الوسط حتى يكاد يخْفى ، وإن بداية القصة ونهايتها أشبه بقوسين ضخمين يضمان بينهما حشدًا رائعًا من الآراء الفلسفية » . وهو حكم نميل إليه ، لأن الطابع القصصى كان واضحًا فى البدء حين تَحَدَّثَ الكاتب عن الجزيرة ومجىء التابوت إليها ، وَرَسَمَ المسرح بمياهه وأشجاره وحيواناته ، ثم انساق بعد ذلك فى أبحاثه الفلسفية عن الروح ، والكون ، وواجب الوجود ، والوصول إلى الخالق عن طريق الاستشفاف والتأمل ، وأفاض فى ذلك إفاضة العالم الأديب ، لا القصَّاص الفنان ، حتى إذا انتهى حىٌّ من مأربه العقلىّ اتصل بِأَبْسَال ، وهنا نرى خيوط قصةٍ تأخذ مجراها الوصفى وتنتهى بأدوارها وأشخاصها ومسرحها انتهاء القصص الفنية ، فكأن الخيط الفنى قد انقطع فى الوسط وظهر واضحًا فى الطرفين كما يقول الأستاذ «غرسيه غومس» ، وإن كان الأستاذ «ليون جوتييه» مترجم القصة إلى الفرنسية لا يرى ذلك ، ويخالف الأستاذ غومس ، حيث يقول فى نقده : «إن

---

(١) مقدمة الترجمة الفرنسية للأستاذ ليون جوتييه ص ٩ .

ذلك يوحى بضعف القصة ، بينما العنصر القصصى فى الواقع متعادل متناسق فى أجزاء القصة كلها ، وهو يختلط بالعنصر الفلسفى من أول الكتاب إلى آخره ، وقد عرف ابن طفيل أن يستبقى من الأسطورة ما يصلح وما يسوغ ، ويطرح منها ما لا ينفع ، فأضفى عليها روحًا جديدة ، ومكنها من حشد جميع آرائه وأفكاره»[1] .

وقد عرضنا رأى الأستاذ «ليون جوتييه» دون أن نراه ، لأنه مما يسرنا أن نسجل هذه الشهادات السارة لفيلسوفنا الكبير ، ولئن كان السياق القصصى غير مُطَّرد ، فإن الأسلوب الأدبى - بعيدًا عن موازين القصة - قد جاء آية فى البراعة والإبداع ، إذ أحكم المؤلف تصوير المواقف إحكامًا رائعًا ! وفى بعض عباراته نبض مؤثر حى ، تهتز له المشاعر كما تهتز لقصَّاص فنان ، فهو مثلاً يتحدث عن حىّ حين تموت مرضعته «الظبية» ، وينظر فيجدها لأول عهده بالموت جثة هامدة ، دون أن يعرف حقيقة ما طرأ عليها ! فيأتى من الأعمال ما يدل على حيرته وارتباكه ، وهو موقف عاصف مؤثر ، أجاد تصويره ابن طفيل حين قال[2] :

«ومازال الهزال والضعف يستولى عليها ويتوالى - على الظبية المرضعة - إلى أن أدركها الموت ، فسكنتْ حركاتُها بالجملة ، وتعطلت جميع أفعالها ، فلما رآها الصبى على تلك الحالة جزع جزعًا شديدًا ، وكادت نفسه تفيض أسفًا عليها ، فكان يناديها بالصوت الذى كانت عادتها أن تجيبه عند سماعه ، ويصيح بأشد ما يقدر عليه فلا يرى لها عند ذلك حركة ولا تغيرًا ، فكان ينظر إلى أذنيها وإلى عينيها فلا يرى بهما آفة ظاهرة ، وكذلك كان ينظر إلى جميع أعضائها فلا يرى بشىء منها آفة ، فكان يطمع أن يعثر على موضع الآفة فيزيلها عنها فترجع إلى ما كانت عليه ، فلم يتأت له شىء من ذلك ولا استطاعه ، وكان الذى أرشده إلى ذلك الرأى ما كان قد اعتبره فى نفسه قبل ذلك ، لأنه كان يرى أنه إذا أغمض عينيه أو حجبهما بشىء لا يبصر شيئًا حتى يزول ذلك العائق ، وكان كذلك يرى أنه إذا أدخل إصبعيه فى أذنيه وسدهما لا يسمع شيئًا ، حتى

---

(١) مقدمة الترجمة الفرنسية ص ١١ .

(٢) حى بن يقظان ، ص ٧٤ - ط دار المعارف ، سلسلة الذخائر .

يزول ذلك العارض ، وإذا أمسك أنفه بيده لا يشم من الروائح شيئًا حتى يفتح أنفه ، فاعتقد من أجل ذلك أن جميع مالها من الإدراكات والأفعال قد تكون لها عوائق تعوقها ، فإذا أُزيلت تلك العوائق عادت الأفعال » .

لهذا الموقف فى قوته وتصويره أمثال فى القصة ، وحين قرأته تذكرت مشهد طفل كان ينادى أباه الميت دون أن يعلم شيئًا عن حقيقته ! وكنت أشاهده وقلبى يتقطع من الألم ولا أستطيع أن أفعل شيئًا ! وجاء من أبعدوه عن الجثة وهو لا يفهم سر الإبعاد ! لقد أعاد ابن طفيل لإحساسى هذا المشهد بما كتب ، فطفرت من عينى الدموع !

ولعلنا بعد ما تقدم عن القصة وأفانينها التاريخية والتربوية والأدبية نستطيع أن نستمع إلى ما قيل عنها فى مجال التأثر والتأثير لنصل إلى رأى توضحه البراهين وتدعمه الأسانيد .

لقد ظهر ابن طفيل فى القرن الثانى عشر للميلاد ، وهو من جبابرة المفكرين فى العصور الوسطى - كما وصفه بذلك أكثر الباحثين - وقد وصل إلى الحجابة ، فالوزارة ، فى بلاط صاحب المغرب الأمير يوسف بن عبد المؤمن ، وكان بين الأمير والوزير من الصداقة ما مهد له الطريق للراحة والاطمئنان ، فاستطاع أن يؤدّى دوره الثقافى عالمًا ، وفلكيًّا ، وطبيبًا ، ورياضيًّا ، وفيلسوفًا ، وأديبًا ، وكان من الثقة بنفسه بحيث واجه أفكار الأفذاذ من سابقيه ومعاصريه ، فناقش آراء بطليموس ، والفارابى ، وابن سينا ، وابن رشد ، وابن باجة ، والغزالى ، مناقشةً ذات حُجج وإقناع ، وكانت قصة حى ابن يقظان بعض آثاره الباقية التى قال عنها الدكتور «سارتون» بحق : «إنها من أجمل الكتب المبتكرة فى موضوعها التى ظهرت فى العصور الوسطى جميعها ! » .

وكان طبيعيًّا أن يتجادل الكاتبون حولها ، فظهرت مجموعة من البحوث تزن أفكارها ، وتحدد مدى ابتكارها وتجديدها ، كما تدل على تأثيرها فيما تبعها من القصص المماثلة .. وقد تكاثر البحث فى ذلك حتى كاد أن يبعد عن موضوعه ، إذا كان مجال الافتراض لدى بعض الباحثين طلقًا فسيحًا تعذرت معه الضوابط الفاصلة ، وسنناقش من هذه البحوث ما نراه جديرًا بالنقاش لنصل إلى الحقيقة التى نريد .. لقد كان ابن طفيل معجبًا بابن سينا ، وقد قرأ قصته عن حى بن يقظان ، فأوحتْ إليه أن يكتب قصة حىّ

كما يتخيلها هو لا كما أرادها الشيخ الرئيس ، فابن سينا قد جاء فى قصته برفقة يتحدثون ويتناقشون ، ليسوا أشخاصًا من لحم ودم ، ولكنهم يرمزون إلى أشياء معنوية تجريدية ، فحى بن يقظان رمز إلى العقل المجرب ، الذى حنكته السنون ، وعركته الأحداث ، ورفقته رموز إلى الشهوات والغرائز والغضب ، وسائر الملكات الإنسانيّة وميدان الجدل بينهما ما يحدث عادة بين غرائز الإنسان وشهواته وعقله ، والقصد منها - كما يقول الأستاذ أحمد أمين[1] :

«تبين قوة العقل وتميزها على ما لدى الإنسان من غرائز وملكات ، وهدايتها ونجاتها إذا استمعت قوله ، ثم بيان علاقة هذا العقل الأرضى بالعقول السماوية العليا ، ثم علاقتها جميعًا بالعقل ، وهو العلة الفاعلة ، أو بعبارة أُخرى هو الله واجب الوجود». قرأ ابن طفيل رسالة ابن سيناء عن حى بن يقظان فأوحت إليه فكرة أخرى لا تستهدف ما عناه الشيخ الرئيس ، ولكنه شاء أن يبين كيف يستطيع الإنسان أن يرتقى بنفسه وبتفكيره من عالم الحسّ إلى عالم العقل ، بحيث يستطيع أن يصل إلى معرفة الله - وهو بذلك متأثر بفكرة المعتزلة عن العقل - فهو دليل الجزاء من ثواب وعقاب ، وإذا استطاع الإنسان أن يصل إلى الله بنفسه (كما وصل حى بتأملاته) فقد بلغ مشارف الكمال !

رأى ابن طفيل أن حيًّا تَوَلَّدَ من غير أب وأم فى إحدى جُزر الهند تحت خط الاستواء، وتلك الجزيرة وأعدل بقاع الأرض وأصلحها للتولد والاختصار والامتزاج ، وقد خاف أَلاَّ يصادف هذا التوالد الطبيعى مقنعًا عند بعض الناس ، فأجاز رأيًا آخر ، هو أن حيًّا وُلِدّ لأب وأم من البشر ، إذ كانت أُمّه أُختَ ملك جبار ، وقد عَضَلها ومنعها من الزواج ، إذ لا يوجد كفؤٌ لها من بنى الإنسان ، ولكنها تزوجتْ سرًّا بيقظان - أحد وزرائه - وحين جاءها الوضع حذرت من أخيها ، فأخذت حيًّا وليدها ووضعتْه فى صندوقٍ وألقتْه فى اليم دامعةً باكية ، راجيةً أن تلحظه السماءُ بعنايتها ، فسار الصندوق حتى وصل إلى الجزيرة ، ونشأ حىّ هناك ، يقول ابن طفيل فى رواية ذلك[2] :

---

(١) حى بن يقظان ، تحقيق الدكتور أحمد أمين ، ط دار المعارف ص ٢١ .

(٢) ص ٦٨ - ط دار المعارف .

«ثم قذفتْ به فى اليم ، فصادفَ ذلك جرى الماء بقوة المدِّ ، فاحتمله من ليلته إلى ساحل الجزيرة ، وكان المدُّ يصل فى ذلك الوقت إلى موضع لا يصل إليه إلا بعد عام ، فأدخله الماء بقوة إلى أجمةٍ ملتفة الشجر ، عذبة التربة ، مستورة عن الرياح والمطر ، محجوبة عن الشمس ، تَزْوَرُّ عنها إذا طلعت ، وتميل إذا غربت ، ثم أخذ الماء فى النقص والجزْر عن التابوت الذى فيه الطفل ، وبقى التابوت فى ذلك الموضع ، وعلت الرمال بهبوب الرياح ، وتراكمت بعد ذلك حتى سدت باب الأجمة على التابوت ، وردمت مدخل الماء إلى تلك الأجمة ، فكان المدُّ لا ينتهى إليها ، وكانت مسامير التابوت قد تَقَلْقَلَتْ، وألواحه قد اضطربت عند رمى الماء إياه فى تلك الأجمة ، فلما اشتد الجوع بذلك الطفل بكى واستغاث ، وعالج الحركة ، فوقع صوته فى أُذِن ظبية فقد طَلاهَا ، خرج من كِنَاسِه[1] فحمله العُقاب ، فلما سمعت الصوتَ ظنّته ولدها ، فتتبعتِ الصوتَ وهى تتخيل طَلاها ، حتى وصلت إلى التابوت ، ففحصت عنه بأظلافها وهو ينوء ويئن من داخله ، حتى طار عن التابوت لوح من أعلاه ، فخفت الظبية وحنت عليه ، وأروتْه لبنًا سائغًا ، وما زالت تتعهده وتربيه وتدفع عنه الأذى ..... » .

هذه السطور المحدودة التى جاءت بين صفحات القصة الطويلة كانت مدعاة لتقوُّل كثير ، فقد قرأ الأستاذ «غرسيه غوميه» بضعةَ أسطر فى خرافة تُرْوَى عن الإسكندر ذى القرنين ، فرأى بين الخرافة – وهذه الأسطر من قصة حىّ – ما يدل على أن ابن طفيل قد استغل أسطورة ذى القرنين وبنى عليها قصته ، ثم جاء «بلتاز جراسان » بعد ابن طفيل بعدَّة قرون ، فنقل عنه فكرته التى رسمها بوضوح ، وكان الاحتذاء واضحًا سافرًا ينادى على نفسه ، ولكن الأستاذ «غرسيه» وبعض مَنْ شَايَعه من المستشرقين لا يميلون إلى الجزم بذلك ، بل يرون أسطورة الإسكندر أساس القصتين ، وأنها كانت مصدر ابن طفيل و«جراسان» معًا ، والأمر أوضح من أن يختلف عليه اختلاف الشكل الغامض من الآراء ، وسنبسطه بسطًا سافرًا يلمسه القارىء بالنظر السريع بعد أن نُبَدِّد ما حاكوه حول قصة حى من شبهات واهية لا ترتكز على أساس متين .

---

(١) الظَّلَى : ولد الظبية .. والكِنَاسُ : موضع فى الشجر يأوى إليه الظبى ليستتر .

لقد جعل ابن طفيل بطل قصته - أولاً - طفلاً يُرْمَى فى تابوت ينقله البحر إلى جزيرة نائية ، ثم جعل مرضعته - ثانيًا - ظبية رقيقة تعطف عليه وتختاره بديلاً من طَلاَها الفقيد ، ثم مضى به - ثالثًا - حتى بلغ أتم مرحلة من النضج الفكرى تولَّى فيها تعليم نفسه بنفسه عن طريق التأمل والاستبصار ، حتى وصل إلى فكرة الإنسان المتوحد - بوحى من تفكيره الدقيق - فما فى هذه الثلاثة من الغريب على ابن طفيل حتى يستند إلى أسطورة وثنية لا تصلح لإلهام عبقرى بديع ؟

أما أنه قد رمى بالطفل إلى البحر مع التابوت خوفًا من ملك جبار ، فجائز جدًّا أن تكون قصة موسى - عليه السلام - حكاها القرآن الكريم قد هدتْه إلى ذلك الإنقاذ الغريب ، وابن طفيل الفيلسوف المسلم قد قرأ القرآن وأدرك أسراره ، ولأَنْ يتأثر به أقرب إلى العقل من أن يتأثر بخرافةٍ وثنية لم يثبت وجودها لعهده على وجه قاطع صريح ، فلو تأثر خيال ابن طفيل فى هذا الموضع بشىء لتأثر بقول الله ، ولا يقدح فى ابتكاره أن يهتدى بنص كريم .

هذا عن الشبهة الأولى .. أما عن الشبهة الثانية التى لمحها الأستاذ «غومس» فى إرضاع الظبية لحىّ حتى استوى ومَرِنَ ، فليست أسطورة الإسكندر صاحبة التفكير فى ذلك ، إذ إن أساطير العرب القديمة تذكرُ نحوًا قريبًا منه حين تجعل بعض الحيوانات تعطف على الصغار فترضعها الأثداء ... وكتاب الحيوان للجاحظ ذائع مشتهر ، ولابد أن عالِمًا طبيبًا يهتمّ بالتشريح كابن طفيل قد قرأه ودرس طبائع الحيوان وخصائصه كما صورها الجاحظ ، وفى بعض قصص الجاحظ وطرائفه ما يدل على رضاعة الأطفال من الحيوان ، فقد قال ما نصه :

«وزعم علماء البصريين أن طاعونًا جارفًا جاء على أهل دارٍ ، فلم يشك أهل تلك المحلة أنه لم يبق فيها صغير ولا كبير ، وقد كان فيها صبىّ يرتضع ويحبُو ، ولا يقوم على رجليه ، فعمد من بقى من المطعونينَ من أهل تلك المحلة إلى باب تلك الدار فَسَدَّه ، فلما كان بعد ذلك بأشهر تحول فيها ورثة القوم ، فَفَتَحَ الباب ، فلما أفضى إلى عرصة الدار إذا هو بصبى يلعب مع أَجْرَاءِ كلبته ، وقد كانت لأهل الدار ، فراعه ذلك ، فلم يلبث أن

أقبلت كلبة كانت لأهل الدار ، فلما رآها الصبى حَبَا إليها ، فمكنته من أطيائها فمصها ، فظنوا أن الصبى لما بقى فى الدار وصار منسيًّا واشتد جوعه ورأى أَجْرَاءَها تستقى من أطيائها ، حَبَا إليها ، فعطفت عليه ، فلما سقته مرة أدامت ذلك له ، وأدام هو الطلب ، فسبحان من دبّر هذا وألهمه وسوّاه ودلّ عليه[1] » .

وبديهى أنىّ لا أذكر هذه القصة لأجزم بوقوعها ، فقول الجاحظ : «وزعم علماء البصريين » مما يضعف تحققها ، ولكنى أقول إنها كانت معروفة لابن طفيل فيما قرأ من كتب الجاحظ ، فإذا جعل حيًّا فى قصته يفىء إلى ظبية ترضعه وترئمه ، فذلك مما أوحاه إليه أمثال هذه الأقاصيص ، وخياله الرائع جدير أن يتفتق تلقائيًّا عن اتجاه معقول يرتضيه ، على أن اختيار الظبية بالذات ذو مدلول ذَوْقى وعلمى لا يبعد عن ذهن راقٍ كذهن ابن طفيل ... وما تعمدنا الاستشهاد بقصة الجاحظ إلا لنبطل رأى من يقول باستلهام خرافة غربيّة لم تكن ذائعة فى عصر الموحدين .. أما وصول حىّ بنفسه إلى ما هدتْ إليه التعالم السماوية من قُدرة الخالق الأعظم وإبداعه فهو الهدف الأساسى الذى قام فى نفس الفيلسوف قبل أن يُنشىء القصة ، وعلى أساسه اختار البطل ، وهيأ المسرح ، وكتب تاريخ الحياة ، أفيكون قد استوحاه أيضًا من أسطورة الإسكندر - وهى لا تشير إلى مغزى فلسفى على الإطلاق ؟ . ربما كان القول بتأثير ابن باجة فى نفس ابن طفيل بفكرة الإنسان المتوحد مما يلتفت إليه فى تكوين بنائه الفلسفى ، ولكنَّ القولَ بتأثير أسطورة الإسكندر وَهْمٌ متآكل لا يثبت إلى تحقيق .

لقد طال الحديث عن هذه الأسطورة ، وكأنى بالقارىء قد اشتاق إلى الوقوف على مضمونها ليلمس بيديه مكان الشطط فى الاستنتاج ، والغلوّ فى التقدير ، وهى تقص علينا أن الإسكندر وصل فى فتوحاته المظفرة إلى جزيرة تسمى «أرين» ، فرأى بها تمثالاً ضخمًا كُتبت عليه سطور كثيرة ، فسأل عن ترجمتها ، فعرف أن صاحب هذا التمثال

---

(١) الحيوان للجاحظ ج ١ ط الساسى .

كان ابنًا لبنت ملكٍ ، فألقت به فى البحر لسببٍ مَّا ، فرحل به التيار إلى جزيرة بعيدة لا يسكنها إنسانٌ ، فربتْه ظبيةٌ عطفت عليه ، فنما بالجزيرة وترعرع ، وأخذ يتفكر ويتأمل دونَ أن يصل إلى شىء ، حتى وصل إلى الجزيرة أبوهُ باحثًا عنه ، فتعارفَا واصطحبا دون أن يعرف أحدهما الآخر ، ثم تركا مكانهما إلى الجزيرة المعمورة .. وهذا بعينه قريب مما حكاه ابن طفيل ، ولكن مكان الشطط فى الاستنتاج والغلو فى التقدير يكمن فى ناحية هامة لا يجوز إغفالها ، هى أن هذه الأسطورة لم تُعرفْ إلا فى مخطوط كُتب بحروف لاتينية أرغونية يرجع إلى القرن السادس عشر[1] ، ومعروف أن ابن طفيل قد كتب قصته فى القرن الثانى عشر الميلادى ، فكل ما يجىء بعد ذلك من الأساطير المشابهة لابد أن يكون مستلهمًا من قصة حىّ بن يقظان ، ولا يمكن أن يكون العكس صحيحًا إلا بدليل يقينى تطمئن إليه النفس ، وهذا ما لم يأت به القائلون بتأثير هذه الأسطورة إلى الآن .. وادعاء قِدَمِ الأساطير الشعبية مما يستأنس به عند قيام أدلة متضافرة ، ولكنه لا ينهض وَحده دليلاً يُجابه أدلة منطقية ذات زمان وتاريخ .. على أن هذه الأسطورة جعلت فى رأى بعض النقاد أصلاً لقصة ألفها الكاتب الإسبانى بلناسار جراتيان (١٦٠١ – ١٦٥٨) ، وهى فى ثلاثة أجزاء ، يتشابه الجزء الأول منها تشابهًا قريبًا بقصة حىّ ، إذ إن بطل القصة ينجو من الغرق فتدفعهُ الأمواج إلى جزيرة نائية ، فيصادف فتى مثل حىّ بن يقظان كان يحيا فى الجزيرة على نحو مماثل لحياته ، لا يعرف خالقه ، ولا يفهم عن الحياة شيئًا ، فيصادفه ويفهمه طريقة الكلام ، كما فعل أبسال بحىّ تمامًا ! ثم يتوجهان معًا إلى أسبانيا ، ويبدأ صاحبه بتحذيره من الناس ، ويدعوه إلى التعقل والتصون ، فيستجيب إلى غرائزه ، مخالفًا إيَّاه ، ثم ينزلق فى علاقة أثيمة مع بعض الساقطات ، فيحاول أن ينقذه ثانية بإرشاده وتوجيهه ، ولكنه يخفق ...

وتمضى القصة على هذا النحو متأثرة بقصة حىّ تأثرًا لا شبهة فيه ، ولكن الأستاذ «غرسية غومس» لا يقطع به ، ويظن أسطورة الإسكندر مصدر ابن طفيل و«جراثيان»

---

(١) حى بن يقظان – ط دار المعارف ، ص ١٣ .

معًا، وقد وافقه على ذلك بعض الكاتبين من المستشرقين ، ولكن الدكتور البحَّاثة محمد غنيمى هلال يبسط جوهر الخلاف فى كتاب «الأدب المقارن» ، ثم يرى أن تأثر «جراثيان» بابن طفيل لا بالأسطورة واضح ، ويعلل ذلك[1] «بأن شبه قصة (جراثيان بلنار سار) بقصة حى لا ينحصر فى القالب القصصى العام ، ولكن يبدو كذلك واضحًا فى الطابع الرمزى ، فهذه الميزة هى جوهر ابن طفيل ، وليس فى قصة الصنم المعبود شىء منها ، على أنه ليس لدينا دليل قاطع على سبق أسطورة الإسكندر لقصة ابن طفيل تاريخيًّا » .

ثم يتحدث الدكتور محمد غنيمى هلال عن تأثير قصة حى فى أوربا ، وأثرها البارز فى الاتجاه إلى قيم جديدة ، وأفكار هامة فيقول[2] :

«وحين عُرفت قصة حىّ بن يقظان فى أوربا لقيتْ حظًّا رائعًا لدى فلاسفتها ، وخصوصًا فى القرن الثامن عشر ثم التاسع عشر ، ذلك أن القرن الثامن عشر الأوربى كان يعتقد مقدرة الإنسان الفطرى على الاهتداء للفضائل ، وإلى الأسس السامية التى تفضل الشرائع الإنسانية ، وقد راجتْ هذه الدعوة نفسها لدى الرومنتيكيين فى القرن التاسع عشر ، ورأى هؤلاء وأولئك فى قصة حى بن يقظان ما يشد أَزْرَ دعوتهم ، إذ اهتدى حى فيها إلى ما يتجاوز الشريعة ، ومن الواضح أنَّ رَأْىَ هؤلاء فى تأويلهم لقصة ابن طفيل لا سند له من حقيقة القصة نفسها ، ولكنه كان جوهر دعوتهم ، وإذن فقد كان تأثير قصة ابن طفيل فى الآداب الأوربية تأثيرًا كبيرًا متنوعَ الدلالة» .

هذا كلام الدكتور محمد غنيمى هلال ، وقد وقفتُ كثيرًا عند قوله : ومن الواضح أنه رأى هؤلاء فى تأويلهم لقصة ابن طفيل لا سند له من حقيقة القصة نفسها ، ولو كان الأمر كما يقول لما تمسك بها هؤلاء دليلاً على ما يهدفون إليه !.. وإذا كانت دعوتهم – باعتراف الدكتور الفاضل – تذهب إلى الاعتقاد فى مقدرة الإنسان الفطرى على الاهتداء

---

(١) الأدب المقارن ، ص ٢٤١ – ط ثالثة .

(٢) الأدب المقارن – ط ثالثة ، ص ٢٤١ .

إلى الفضائل وإلى الأسس السامية التى تفضل الشرائع الإنسانية - إذا كانت دعوتهم كذلك - فإنَّ حىّ بن يقظان كما عرضه ابن طفيل تطبيق صريح لهذه الدعوة ، ومثال قوى الدلالة على إمكانها ، حيث اهتدى إلى الفضائل الإنسانية بتفكيره التأملى وإحساسه الفطرى ، ثم ارتقى إلى ما فوقها فى عالم الغيب ، واهتداؤه إلى هذه الفضائل وحدها هو المقصود عند هؤلاء ، وهو واضح لا شُبهة فيه .

★★★